﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾

[الأعراف: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ردُّ أهْلِ الحقِّ أقْوَى حُجّةً، وأوضحُ بيانًا من تُهمةِ أهْلِ الباطِلِ

لما كان جوابُ قومه أنَّهم نسبوه إلى الضَّلال البيِّن؛ أتبعَهُ بحكايةِ ردِّ نوحٍ ﷺ عليهم بنفي ما قذفوه به بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، فلمّا "قذفوه بضلال مقيَّدٍ بالوضوح؛ نفى الضَّلال المطلقَ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾: الضَّلالُ والضَّلالة مصدران من قولكَ: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً، "ولا يظنُّ أنَّه لمّا كان الضَّلالُ والضَّلالة مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالة؛ كان القولان سواءً؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة والنَّفي كما علمت، وإنَّما بالغَ ﷺ في النَّفي لمبالغتِهم في الإثباتِ حيثُ جعلوهُ - وحاشاه - مستقرًّا في الضَّلال الواضحِ كونه ضلالًا"[2].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تَفنيدُ نوحٍ لتُهمةِ قومِه له بالضّلالةِ، والتّأكيدُ بأنّه رسولٌ من ربِّ العالَمين

يخبرُ اللّه تعالى بما ردَّ نوحٌ ﷺ على قومه، نافيًا عن نفسه ما رموه به، متلطِّفًا في جوابه؛ إذ خاطبهم بصلاتِ القُربى، مبيِّنًا أنَّه مرسلٌ من اللّه ربِّ العالمين الذي يتعهَّد خلقهُ بالخيرِ والنَّفع، وهذا أقصى منازلِ الهداية، فقال نوحٌ: "يا قومُ لست ضالًّا في مسألةٍ من المسائلِ بوجهٍ من الوجوهِ، ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ربّي وربِّكم وربِّ جميع الخَلق"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/428 - 429.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.
(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ نِداءِ نوحٍ عليه السلام لقومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

مَنهجُ النّبوّةِ، استمالةُ القلوبِ، بحُسنِ الأدَبِ، وسَعةِ الصَّدرِ

افتتحَ نوحٌ عليه السلام جوابَه بنداءِ قومِه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ تنبيهًا لهم على مضمونِ القول، وأضافَهم إليه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ "استمالةً لقلوبهم نحو الحقِّ"(1)، وكان ردُّه هذا بعد وصفهم إيَّاه بالضَّلال "مبالغةً في حسنِ الأدب والإعراض عن الجفاءِ منهم، وتناولٍ رفيقٍ وسعة صدرٍ حسبما يقتضيه خُلقُ النُّبوَّة"(2).

فائدةُ تَكرارِ نداءِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

إخلاصُ النُّصحِ، والإعراضُ عنِ الجَفاءِ، طريقانِ للبقاءِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ كرَّر نداءَ قومه، وإن كان الَّذين أجابوه هم الملأُ من القومِ، وليس القومُ كلُّهم؛ تفضُّلًا منه بالإعراض عن جفائهم، واستعطافًا لهم، وهذا يدلُّ على سَعة صدرِه معهم(3)، وفي ذلك يقولُ العلّامة ابن عاشورٍ رحمه الله: "ولم يخصَّ خطابه بالَّذين جاوبوهُ، بل أعاد الخطابَ إلى القوم كلِّهم؛ لأنَّ جوابَه مع كونه مجادلةً للملأِ من قومِه هو أيضًا يتضمَّن دعوةً عامَّة، كما هو بيِّنٌ، وتقدَّم آنفًا نكتةُ التَّعبير في ندائهم بوصف القوم المضافِ إلى ضميرِه، فأعاد ذلك مرَّةً ثانيةً استنزالًا لطائرِ نفوسِهم، ممّا سيعقب النِّداء من الرَّدِّ عليهم وإبطال قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾"(4).

سِرُّ العُدولِ عن نفْيِ (الضَّلالِ المُبينِ)، إلى نفْيِ (الضَّلالةِ):

نفيُ نوحٍ وصفَ (ضلالة) عن نفسِه، دليلٌ على سُموِّهِ وصَلاحِه

لمّا حكَى اللّهُ تعالى قولَهم لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فكان ذلك يقتضي أن يكونَ جوابُه: (ليس بي ضلالٌ) ولكنَّه عدلَ إلى قولِه: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ فنفى الضَّلالة دون الضَّلالِ؛ "لأنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/415.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191 - 192.

قولَه: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: ليس بي نوعٌ من أنواعِ الضَّلالةِ البتَّة، فكان هذا أبلغَ في عمومِ السَّلبِ"[1]. قال الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لِمَ قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل: (ضلال) كما قالوا؟ قلتُ: الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسه، كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيل لك: ألك تمرٌ؟ فقلت: ما لي تمرةٌ"[2]، "فالأسماء المفردة الواقعةُ على الجنس التي يكونُ بينها وبين واحدها تاءُ التَّأنيثِ، فإنَّه متى أريد النَّفي؛ كان استعمال واحدِها أبلغَ، ومتى أريدَ الإثباتُ؛ كان استعمالُها أبلغ"[3]، فقولُنا: الضَّلال والضَّلالة جاءا مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً سواءٌ؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة، وإنَّما بالغَ ﷺ في النَّفي لمبالغتِهم في الإثبات[4].

سِرُّ تذْكِيرِ ﴿لَيْسَ﴾ مع تأنيثِ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾:

الضَّلالةُ مؤنَّثٌ غـيرُ حـقـيـقـيٍّ، وهي انحرافٌ في القولِ أوِ الفعلِ أوِ الاعتقادِ

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ جاء ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ مؤنَّثًا، وجرَّد الفعل ﴿لَيْسَ﴾ من علامة التَّأنيث، حيثُ "جرى على الجوازِ في تجريدِ الفعل من علامة التَّأنيث، إذا كان مرفوعُه غيرَ حقيقيٍّ التَّأنيث، ولمكان الفصل بالمجرور"[5]، وإذا كان التَّذكيرُ والتَّأنيث كلاهما جائزٌ في الفعلِ هنا؛ فإنَّه آثر التَّذكيرَ؛ لأنَّه أخفُّ بتجرُّده عن حرف التَّأنيثِ، فعبَّر به في ردِّ شُبهتهم إيجازًا، واكتفى بعلامة التَّأنيث الظّاهرة في ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ الدّالَّةِ على الوحدة والمرَّةِ؛ ولئلّا تثقلَ العبارةُ بعلاماتِ التَّأنيث، وفي التَّخفيفِ عنها مندوحةٌ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.

(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/166.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾:

بَـلاغـةُ الـرَّدِّ، مُسْتَلَّةٌ من فِقْهِ نوحٍ عليه السلام بمُرادِ خُصومِه

لمّا وصفَ قومُ نوحٍ رسولَهم عليه السلام بكونه مستقرًّا في الضَّلال بإدخال (في) الظَّرفيَّة على الضَّلال؛ أجابهم بنفي ملابستهِ أيَّ نوعٍ من الضَّلالة بإدخال الباء في قوله: ﴿لَيْسَ بِي﴾ الدّالَّة على المصاحبة أو الملابسة، ليناقض معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة من قولهم: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، فلمّا جعلوا الضَّلال متمكِّنًا منه محيطًا به؛ نفى هو أن يكونَ الضَّلال متلبِّسًا به[1].

سَببُ تَقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِي﴾ على اسمِ (ليس):

غَـرَضُ التَّقديمِ يَـجـمـعُ بين الاهـتـمـامِ بالمتكلِّم، ورعايةِ السِّباق

قدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ لأمرين اثنين: الأوَّل: معنويٌّ، وهو الاهتمامُ بالمنفيِّ عنه، وهو المتكلِّم، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّن ضمير المتكلِّم ليتسلَّطَ النَّفي على المتقدِّم، إذ المهمُّ أن يسلب عن نفسهِ ذلك، والآخر لفظيٌّ نسقيٌّ، وهو بالنَّظر إلى تركيب قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ تقدَّم ضميره في (نراك) على ذكر الضَّلال، وقدَّم ضميرهُ كذلك في ﴿بِي﴾ على الضَّلالة، فيكونا على نسقٍ واحدٍ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾:

المبالغةُ في الرَّدِّ على مُبالغتِهم في الاتِّهامِ، قوَّةٌ مُستملَحةٌ، وحقٌّ صَميمٌ

نُكِّرَ لفظُ الضَّلالةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾؛ للمبالغةِ في نفي الضَّلال عنه، أي: ليس بي أيُّ شيءٍ مِن الضَّلال، والغرضُ من ذلك الرَّدُّ بالنَّفي البليغ على مبالغتِهم بوصفه بالضَّلالِ؛ إذ جعلوا الضَّلال ظرفًا له[2].

بَلاغةُ وصلِ جُملةِ: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾ بما قبلَها:

وصلَ قولهُ جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾؛ لكونهما من مقولهِ عليه السلام؛ فبعد أن "نفى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

عن نفسِه العيبَ الَّذي وصفوه به؛ وصفَ نفسَه بأشرف الصِّفات وأجلِّها، وهو كونه رسولًا إلى الخَلق من ربِّ العالمين"[1]، فأعقب التَّخليةَ بالتَّحلية، فزكَّى نفسَه عن الضَّلال، وأثبت نقيضَ ذلك بكونه مبلِّغًا عن الله تعالى، فأنَّى يعتريه الضَّلال؟

التَّخليةُ مُقدَّمَةٌ على التَّحليةِ، بنفْيِ المذمّةِ، وتَرسيخِ المَحمَدَةِ

دَلالةُ حرفِ (لكنَّ) المتّصلِ بياءِ المتكلِّم، في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي﴾:

أعقبَ النَّفيَ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ بالاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾، ولم يقل: (أنا رسول)؛ ليصرِّحَ بالاستدراك، فلمّا نُسِبَ نوحٌ ﷺ إلى السَّفاهة؛ نفاها عن نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكان وصفُه بالسَّفاهة يستلزمُ كونَه كاذبًا ضالًّا، فاستدرك عليه بكونهِ رسولًا من ربِّ العالمين، وهذا يقتضي "كونَهُ في الغاية القصوى من الرُّشد والأناةِ والصِّدقِ والأمانة؛ فإنَّ الرِّسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنَّه قيل: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكونُ من الرُّشد والصِّدق"[2].

إثباتُ الهدايةِ بقضْدِ نفْيِ نَقيضِها، وصُدورُ النَّفْيِ والاستدراكِ عن قائلٍ واحدٍ

وفائدةُ دخول (لكنَّ) على ياء المتكلِّم الدَّلالةُ على أنَّ النَّفيَ والاستدراكَ كليهما من قائلٍ واحد؛ لينقضَ المعنى الأوَّل الَّذي رموه به، ويثبتَ نقيضه، "كما تقول: ما زيدٌ بضالٍّ، ولكنَّه مهتدٍ، فـ (لكن) واقعةٌ بين نقيضين؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحد الشَّيئين: الضَّلال والهدى، ولا تجامع ضلالةُ الرِّسالةَ"[3]، فنفى عن نفسه الضَّلالَ، وأثبتَ نقيضَها، وهو الهدايةُ.

فائِدةُ إيثارِ الوصْفِ لا الإضافةِ، بدُخولِ حرفِ الجرّ ﴿مِّن﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آثرَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83.

التَّصريحُ بمبدأِ الرِّسالةِ تَشريفٌ لحامِلِها

الوصف على الإضافةِ، لا العكس كما في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّخرُف: 46]؛ فالجارُّ والمجرور ﴿مِّن رَّبِّ﴾ صفة لرسول، و(مِن) لابتداء الغايةِ تصريحًا بمصدر الرِّسالة، وإيثارُ وصفِ ﴿رَسُولٌ﴾ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإضافةِ إلى تنكيره تفخيمٌ لهذا الرَّسول، قال في روح المعاني: "و(مِنْ) فيها لابتداء الغاية مجازًا متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لرسولٍ مؤكِّدة ما يفيده التَّنوينُ من الفخامةِ الذّاتيَّة، كأنَّه قيل: إنّي رسولٌ، وأيُّ رسول كائنٌ من ربِّ العالمين"[1]. وهذه الصِّفة تفيد المدحَ لإثبات كونه مرسلًا من الله تعالى، وهذا المدحُ يناسب السّياقَ للرَّدِّ على نسبتهم له إلى الضَّلالِ، فظهر أنَّ الأنسبَ بالسّياق هو الوصفُ لا الإضافةُ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بدلًا من اسم الجلالةِ (الله):

إرسالُ الرُّسُلِ لِتحقيقِ المصالحِ والإحسانِ للعبادِ، هو بالرُّبوبيَّةِ ألْصَقُ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يعبِّر عن مصدرِ الرِّسالة بكونِها من ربِّ العالمين بدلًا عن اسم الجلالةِ (اللّه)؛ تذكيرًا لهم بإحسانِه إليهم، فمعنى قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ "المحسنُ إليهم بإرسال الرُّسلِ لهدايتهم بإنقاذِهم من الضَّلال، فردَّ الأمرَ عليهم بألطفِ إشارةٍ"[2]، والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة يناسبُ السّياق الذي يذكر فيه مصالحَ العباد، وما يتعلَّق بهم من إقامة حياتهم، وفيه تنبيهٌ لهم "على أنَّه ربُّهم؛ لأنَّهم من جملة العالم، أي: من ربِّكم المالكِ لأموركم النّاظرِ لكم بالمصلحة حيثُ وجَّهَ إليكم رسولًا يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادةِ"[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/390، وابن عادل، اللباب: 9/180.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والمراغي، تفسير المراغي: 8/189.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الضَّلالُ) و(الضَّلالةُ):

الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال؛ لأنَّها تطلق على ضلالةٍ واحدةٍ، كالتَّمر والتَّمرة، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسهِ في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيلَ لك: ألك تمرٌ؟ فقلتَ: ما لي تمرةٌ[1].

الضَّلالةُ تُوصفُ بـواحـدةٍ، أمَّـا الـضَّـلالُ؛ فهو للكثيرِ

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»